

بمناسبة مال العمال اليوم :

واجبات الانسان...

للزمعيم الايطالى يوسف مزينى

بقلم الأستاذ عامر عبد الوهاب

—><—

نشر مزينى هذا المقال عام ١٨٦٠ موجهًا كلامه إلى الطبقة العاملة في إيطاليا قال : أود أن أتحدث إليكم عن واجباتكم ، وأود أن أتحدث إليكم كما يوحى إلى قلبي عن أقدس ما نعرف من الأشياء : عن الله سبحانه تعالى ، وعن الإنسانية والوطن والأسرة . اصفوا إلى إصفاء محبة ، كما سأحدث إليكم حديث مؤدة . إن كلماتي هي كلمات اليقين الذى صهرته السنون الطوال التى قضيتها فى كد ونظر ودرس . واعلموا أنى أبذل قصارى جهدى فى تأدية الواجبات التى سأشرحها لكم وسأستمر فى تأديتها إلى آخر رمق من حياتي . قد أخطئ ولكن قلبي متشبع بالحق . قد أخدع نفسي ولكنى لن أخدعكم ، لذلك أرجو أن تستمعوا إلى كل ما سأقول ، ولكم أن تحكموا بحرية فيما بينكم إن كنت أنكم بلسان الحق . واهجرونى إذا ما شعرتم أنى أنطق عن الهوى ، ولكن اتبعونى وسيروا على نهج خطتي إذا ما تبين لكم أنى رسول صدق مبين . إن الخطأ بلية تستحق الإشفاق ، ولكن إذا عرف الإنسان الحق ولم يهتد بهديه فى أعماله ، فذلك جرم تستكره السموات والأرض !

لما إذا أتحدث إليكم عن واجباتكم قبل أن أتحدث إليكم عن حقوقكم ؟ لما ذا وأنتم تمشون فى مجتمع يبتلى كله بالإجحاف بكم ظوفاً أو كرهاً ، وفيه يحرم عليكم دوماً أن تمارسوا الحقوق التى تخص الإنسان ، والذى كتب فيه أن يكون البؤس نصيبكم ، وما يعرف بالسعادة من حظ غيركم من الطبقات ؟ لما ذا أخطبكم عن التضحية لا عن الغلبة ، أخطبكم عن الفضيلة والتهديب الخلق والتربية لا عن الرفاهة المادية ؟ هذه مسألة لا بد لي أن أشرحها قبل أن أتابع حديثي ، لأنه هنا يتبين الفارق الحاسم بين نظريتنا وبين النظريات الأخرى التى تشيع الآن فى أوروبا . هذا فضلاً عن أنها مسألة يضطرم بها العقل المتبرم ، عقل العامل المتألم !

« نحن فقراء مستعبدون أشقياء ، فتحدث إلينا عن أحوال أنعم من حالنا ، وكذلك تحدث إلينا عن الحرية والسعادة . نبشنا إن كان مقصياً علينا أن نذوق البلاء إلى الأبد ، أو أننا سنترقه بدورنا . توجه بمحدث الواجب إلى سادتنا ، إلى الطبقات التحككة فينا والتى تعاملنا معاملة الآلات ، والتى تحتكر لنفسها الخيرات التى هي حق للجميع . تحدث إلينا عن الحقوق وعن الوسائل التى تؤيد هذه الحقوق ، كما تحدث إلينا عن قوتنا . انتظر حتى ننظر بمكانة يعترف بها ، وحينئذ يجعل بك أن نتخاطبنا عن الواجبات والتضحية »

هذا ما يقوله كثير من رجالنا العاملين وهم يتابعون الأساتذة والهيئات التى تسير ميولهم . هم ينسون شيئاً واحداً فقط ، ذلك أن النظرية التى يثيرونها قد دان بها الناس منذ خمسين عاماً دون إحداث أى أثر من الإصلاح المادى فى حالة الشعب العامل .

إن كل ما حدث فى الخمسين عاماً الماضية فى سبيل الخير والفلاح ضد الحكومات المطلقة والأرستقراطية الوراثية ، إنما حدث باسم حقوق الإنسان ، باسم الحرية كوسيلة ، وباسم الصالح العام كغاية الوجود ، فكل أحداث الثورة الفرنسية ، بل وجميع الثورات التى تتبعها وقلدها كانت نتائج (إعلان حقوق الانسان). وإن جميع مؤلفات الفلاسفة الذين مهدوا لها كانت تقوم على نظرية الحرية وعلى قاعدة تعريف كل فرد ما له من الحقوق . إن جميع المدارس (المذاهب) الثورية نادت بأن الانسان قد خلق للسعادة ، وبأن له الحق فى أن يسى لها بكل ما يملك من الوسائل ، وأن لا حق لغيره فى أن يصد عنه هذا السى ، كما أن له الحق فى أن يزيل كل ما يصادف من الموانع فى هذا الطريق . ولقد زالت الموانع وتحققت الحرية ودامت سنين فى بلاد كثيرة ولا تزال كائنة فى البعض ، فهل تحسنت حال الشعب ؟ وهل حققت الملايين التى تعيش بكدها اليوم ألقه نصيب من المنفعة التى رجوها والتى وعدوا بها ؟

كلا ، فحالة الشعب لم تتحسن ، بل لقد زادت ولا تزال تريد سوءاً فى كل بلد تقريباً ، وعلى الأخص هنا (فى إيطاليا) ، حيث أسجل أسعار حاجيات المعيشة التى أخذت فى الارتفاع ، وأجور الطبقة العاملة التى هيئت فى كثير من فروع الصناعة ، بينما

السكان آخذون في الازدياد .

ولقد اشتدت حال المهال زعزعة واضطراباً في كل بلد تقريباً كما ازدادت أزمات العمل التي قضت بالمطل والمحول على آلاف من المهال ، وإن الزيادة السنوية في تعداد المهاجرين من قطر إلى قطر ، ومن أوروبا إلى النواحي الأخرى من العالم ، والزيادة المستمرة في عدد الجمعيات الخيرية ، والزيادة في مخصصات الفقراء ومساعدات المعوزين ، كل أولئك كاف في إثبات ما نقول ، والشاهدان الأخيران يدلان كذلك على أن العناية العامة آخذة في التيقظ لآلام الشعب ، ولكن عجزهم عن تخفيف هذه الآلام إلى أي حد محسوس يدل على استمرار مروع في شيوع الفاقة بين الطبقات التي يجهدون في مساوتها

ومع ذلك فالواقع أنه حدث في الخمسين عاماً المنصرمة أن زادت يتابع الثروة العامة ، وكثرت خيرات الحياة ، وتضاعف الإنتاج ، واشتد نشاط التجارة ، واتسعت دائرتها وسط الأزمات التلاحقة التي لا مفر منها إذا انعدم النظام . كما أن المواصلات أصبحت مأمونة وسريعة في كل مكان تقريباً ، وهبطت أسعار السلع بسبب انخفاض أجور النقل . ومن جهة أخرى ، فنحن نرى الآن كيف أن فكرة الحقوق المتأصلة في الطبيعة الإنسانية أصبحت مقبولة على العموم .

نعم مقبولة ، ولكن لفظاً وخداعاً ، حتى عند أولئك الذين يسمون في اجتنابها فعلاً . فلماذا لم تتحسن حال الشعب ؟ ولماذا نرى استهلاك المنتجات بدلاً من أن يكون مقسطاً على السواء بين جميع أعضاء المجتمع الأوربي نراه محصوراً في أيدي فئة قليلة تكون أرسقراطية جديدة ؟ ولماذا نرى الانتماش الذي أصاب التجارة والصناعة لم يؤدي إلى يسر الأثرة ، بل إلى ترف الأقلية ؟

إن الجواب يتضح لأولئك الذين ينعمون بالنظر قليلاً في الأشياء . فالتناس نتاج التربية . وهم في سلوكهم يصعدون عن مبدأ التربية الذي طبموا عليه ؛ فالرجال الذين ألهبوا نيران الثورات حتى اليوم إنما أثاروها بوحى فكرة حقوق الفرد . وها قد حققت هذه الثورات أمنية الحرية : الحرية الشخصية ، وحرية التعليم ، وحرية الاعتقاد ، وحرية التجارة ؛ بل الحرية في كل شيء . ولكل

إنسان . ولكن ما فائدة إعلان الحقوق لمن لا يملك وسيلة لاستخدامها ؟ وماذا تعني حرية التعليم لأولئك الذين لا يجدون وقتاً أو واسطة للانتفاع بها ؟ أو حرية التجارة لمن لا يملك شيئاً يتاجر به ، لا رأس المال ولا النسيئة (الائتمان) ؟ بل لقد حدث في جميع البلاد التي أعلنت فيها هذه المبادئ أن المجتمع كان يتكون من فئة تملك الأرض وتموز النسيئة ورأس المال ومن جماهير غفيرة لا تملك غير أيديهم ، وكان عليها أن تزاو الأعمال اللازمة للطبقة السالفة على أية شرائط حتى يتسنى لها أن تعيش كما كان عليها أن تصرف اليوم كله في الكدح الآلى المطرد المل . فهل كانت الحرية بالنسبة لهؤلاء الذين قضى عليهم أن يكافحوا الجوع سوى خدعة غادرة وسخريّة لا ذعة ؟ أما لو كان المقصد من الحرية شيئاً خلاف ذلك ، لكان إذن يتعين على الطبقات المترفة أن توافق على تقليل ساعات العمل وزيادة الأجر وتعمل على نشر التعليم المجاني المتماثل للجماهير ، كما تسعى في جعل أدوات العمل في متناول الجميع ، وأن تقدم مكافآت مالية للمهال الذين ثبتت كفايتهم ونبل غايتهم .

ولكن لماذا يتعين عليهم أن يقوموا بذلك ؟ ألم تكن الرضاية الفرض الأسنى من الحياة ؟ ألم تكن الخيرات المادية مرغوبة قبل كل شيء آخر ؟ لماذا ينتقصون من حظهم هم لأجل نفع غيرهم ؟ أليس على كل إنسان أن يساعد نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وإذا ما كفل المجتمع حرية استخدام الحقوق الإنسانية لكل من توفرت فيه القدرة على ذلك ؛ فيكون حينئذ قد أدى كل ما يطلب منه . أما إذا كان هناك أي فرد يمجز بحكم ظروفه القهرية عن استخدام أي حق من هذه الحقوق ، فما عليه إلا أن ينسى حساب نفسه ولا يلوم سواه .

لقد كان من الطبيعي أن يصرحوا بذلك ، وفعلوا فقد صرحوا به . وهذا الاتجاه العقل الذي ساد الطبقات الميزة بالثراء والذي تحكم في نظرها إلى الفقراء سرعان ما أصبح الوجهة التي انتهجها كل فرد نحو الآخر . ففى كل إنسان بحقوقه هو وبترقية حاله دون السعى في إعانة غيره . وإذا اصطدمت حقوقه بحقوق سواه حينئذ تكون حرب ، لا حرب الدماء ؛ بل حرب الذهب والمخادع . حرب أدنى شهامة ورجولة من الأخرى ، ولكنها

لا تربطه بها صلة ؟ وكيف بعد أن تحدث إليه أعواماً عن الفوائد والمصالح المادية تستطيع أن تحرم عليه وقد أتى الثروة والجاه في متناول يديه أن يمد تينك الدين ليأخذ حظه منهما حتى ولو كان في ذلك ضرر لإخوانه ؟

أيها العمال الإيطاليون . ليس ذلك من خواطر فكري المجردة عن حقائق الواقع بل هو تاريخ عصرنا نحن . ذلك التاريخ الذي تسيل على صفحاته دماء الشعب . سلوا جميع الرجال الذين حولوا ثورة سنة ١٨٣٠ إلى مجرد تغيير طائفة من الأشخاص بأخرى . بل وإن شئتم مثلاً فإنهم اتخذوا من جثث إخوانكم الفرنسيين الذين راحوا ضحية قتال (الثلاثة أيام) مدارج يرتقون عليها إلى عرش العظمة والسلطان . إن جميع مبادئهم إلى ما قبل عام ١٨٣٠ كانت تقوم على تلك النظرية المتينة نظرية حقوق الإنسان لا على عقيدة الإيمان بواجباته . إنكم تدعونهم اليوم خونة مارقين ، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا إلا مصدقين لنظريتهم مستمسكين بها . فجاهدوا أخلص الجهاد ضد حكومة شارل العاشر لأن تلك الحكومة كانت شديدة العداء للطبقات التي نشأوا منها حتى انتهكت حقوقهم وبالغت في حرمانهم منها ، وحاربوا باسم الرقاهية التي لم ينعموا منها بالقدر الذي ظنوا أنه يجب أن ينعموا به . فمذب البعض بسبب حرية الفكر . ووجد آخرون من ذوى العقول الجبارة أنهم منعمون مبددون من الوظائف التي يشغلها ناس دونهم كفاية . ثم زادتهم مظالم الشعب حرقة وغضباً ، فشرعوا يكتبون في جرأة وإيمان عن الحقوق التي تلزم لكل إنسان . يدأنهم لما أمنوا على حقوقهم السياسية والفكرية ، وانفتح أمامهم سبيل الوظائف ، وتحققت لهم الرقاهية التي سعوا من أجلها حينئذ نسوا الشعب . نسوا أن الملايين التي تقل عنهم ثقافة وطموحاً . كانت تجاهد لتقرر حقوقاً أخرى ، وتحقق هتاءة من نوع آخر ، وأخذوا إلى الطمأنينة ، ولم يمددوا يدهم بأحد غير أنفسهم . لماذا تدعونهم خونة . أليس الأجدر أن تدعوا نظريتهم نظرية فادرة ؟

هاسر عبد الوهاب

(البقية في العدد القادم)

تعد لها في الدمار ، وإيها من حرب وحشية لا يألو فيها من وفرت وسائله ، وبزت قوته في سحق الضعيف أو الأخرق سحقاً لا هوادة فيه . وفي حومة هذا القتال المستمر أثربت قلوب الناس الأنانية ، والشره في استلاب خيرات الحياة لذواتها دون غيرها . وهكذا كانت حرية الاعتقاد معولاً يهدم صرح الإيمان كما كانت حرية التعليم سبباً في بث الفوضى الخلقية . أليس من شأن الناس إذا فقدوا رابطة مشتركة ، وانعدمت من بينهم وحدة العقيدة الدينية ، ووحدة الفرض ، وصارت الهتاءة بغيرهم الفريدة ؟ أليس من شأنهم حينئذ أن يسمي كل منهم في سبيله الخاص دون النظر فيها إذا كان في ذلك عدوان على إخوانه . إخوانه إسماء وأعدائه فعلاً ؟ هذه هي الحال التي صرنا إليها اليوم بفضل (نظرية الحقوق) .

يقينا إن الحقوق كائنة ؛ ولكن حيث تصطدم حقوق فرد بحقوق آخر ، كيف نستطيع أن نأمل التوفيق والتسوية بينها من غير الاستناد إلى شيء أسى من جميع الحقوق ؟ وحيث تمارض حقوق فرد أو أفراد كثيرين وحقوق الوطن فإلى أية محكمة ندعى ؟ إذا كان الحق في الرقاهية في أقصى حدودها يتقسط كل شخص حتى فنذا يفض النزاع بين العامل وصاحب العمل ؟ وإذا كان الحق في الحياة هو أول وأقدس حق لكل إنسان ، فنذا يطلب تضحية هذه الحياة لمنفعة بقية الناس ؟ أستطلبونها باسم الوطن أم باسم المجتمع أم باسم فريق من إخوانكم ؟ ما الوطن في نظر من أحدث عنهم سوى البقعة التي نضمن فيها حقوقنا الذاتية كل الضمان . وما المجتمع سوى مجموعة من الناس الذين اتفقوا على استخدام قوة الكل لتأييد حقوق كل فرد ؟

وهل بعد أن علمت الفرد مدة خمسين عاماً أن المجتمع إنما يقوم على غرض تأمينه على ممارسة حقوقه ، هل بعد ذلك نطلب إليه أن يضحي بها جميعاً في سبيل المجتمع وأن يستسلم إذا دعت الضرورة إلى الكدح للتواصل أو السجن أو النفي باسم إصلاح المجتمع ؟ وهل بعد أن بشرته في كل مكان بأن فرض الحياة هو الخير والهناء ، هل بعد ذلك تأمن أن ينصرف من هذا الخير بل وعن الحياة نفسها ليحرر وطنه من الأجنبي أو أن يجهد في إسعاد طبقة